

التطور الديناميكي لعلم اللهجات والأسس المنهجية لإعداد الأطالس اللسانية العامة.
**The Dynamic Development of Dialectology and the
 Methodological Foundations for the Production of General
 Linguistic Atlases.**

* عبد الكريم جيدور¹

Abdelkrim Djidour¹

وحدة البحث اللساني (ورقلة)، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية (الجزائر)

Unity of linguistic Research (Ourgla), CSTRDAL, Algeria

karimn2000@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/20

تاريخ القبول: 2025/11/21

تاريخ الإرسال: 2025/11/17

مُلَخَّصُ الْبَحْثِ

تقدم هذه الدراسة مراجعة للمناهج الأساسية التي اعتمد عليها الباحثون في مشاريعهم الرامية إلى دراسة التنوعات الأدائية الإقليمية في الوطن العربي، والموصوفة باللهجية، على أساس أنها فروع أو اختيارات متاحة للناطقين في مقابلتها باللغات الوطنية والرسومية. كما تتطرق أيضا إلى المقاربات والأفكار التي وُضعت قيد التنفيذ عند إنجاز مشاريع الأطالس اللسانية. لقد بدأت التحريات المنظّمة حول التنوعات اللغوية في الوطن العربي، مع فريق ينتمي إلى مدرسة النحاة الجدد في أوروبا، الذين حاولوا تطبيق المبادئ الفيلولوجية على الأرومة العُروبية (السامية) وتابعهم في مذهبهم عدد من فقهاء اللغة وعلماء الاجتماع والإناسة حول العالم. وعماد تحليلهم العلمي يرجع إلى قانون عام يعرف "بقانون التغير الصوتي" وكانوا أول من أطلق الفرضية القائلة بأن التغير اللهجي لا بد أن يقدم إشارات مهمة حول تطور اللغات ومن أجل ذلك جرى تطبيق هذا الاتجاه الجديد في الدراسة اللغوية بصفة مكثفة ومباشرة، وكانت هذه المبادرات بمنزلة التأسيس الفعلي لما أصبح يعرف باللسانيات الجغرافية أو الجغرافيا اللهجية.

الكلمات المفتاحية: تطور؛ علم؛ لهجات؛ أسس؛ منهجية؛ أطالس.

* عبد الكريم جيدور: karimn2000@gmail.com

Abstract :

This article provides a review of the basic approaches that researchers have adopted in their projects aimed at study the regional spoken variations as choices available to native speakers in exchange for the national and official languages. The paper also addresses the approaches and ideas that had put in place in the achievement of the linguistic Atlas projects. Systematic investigations into the linguistic variations and regional dialects of the Arab world began with a team belonging to the New Grammarians School in Europe, who were essentially researchers specializing in Indo-European languages. For this reason, this new trend in linguistic study was applied intensively and directly. The clearest examples of this are: projects to classify language families and classify geographical patterns of performance variations. These initiatives were the actual foundation of what became known as geolinguistics and dialectal geography

Keywords: development; science; dialects; foundations; methodology; atlases.

**1. مدخل:**

اهتمت الأمم الناهضة منذ زمان بعيد بدراسة الظواهر الطارئة على لغاتها، ذلك لما عرفوا من خطورة هذه الظواهر على مستقبل الأمم ووحدة العقلية والثقافية. ولقد لاحظ العلماء أن القدرة على الكلام تحدث في ظروف طبيعية وسليسة، تكاد تُنسبنا مقدار عظمة التواصل باللغة وجماليات منافعها. حتى أن واحدا من العلماء المعاصرين عبّر عن هذا المعنى الطريف قائلا: «يستطيع كل واحد منا وباقتدار، وبمجرد إصدار بعض الضوضاء من فمه، أن يجعل شبكة جديدة من الأفكار الدقيقة تبدأ في التكون في رؤوس الآخرين. وقد رأيت أنه يحسن بي تذكيرك بهذه الأعجوبة»¹. ويمثل هذه الشهادات يبدو علم اللغة الحديث كالناطق المصدق لكلام الباري سبحانه وتعالى في نحو قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم: 22).

ومن الأمور الهامة التي سجلها العلماء في سياق أبحاثهم حول التطور التاريخي للغات، أن الحيوانات تُنشأ أصواتاً لتتواصل بها فيما بينها، ومع ذلك فإن كل الأصوات الحيوانية، ما عدا بعض الأنصاف الخاصة من الطيور المغردة تخلو تماما من ميزة التقطيع، وذلك يجعل من المستحيل أن يركب الحيوان كلمات أو جملا. غير أن الكائن البشري هو -على ما يبدو- الوحيد الذي يطور الأصوات إلى

كلام. إن الكلام واللغة المنطوقة تميزنا بصفتنا البشرية عن بقية الحيوانات القادرة على إصدار أصوات تعبيرية².

وللغة استخدامات غير محدودة، فإن المعاني والحاجات أوسع بكثير من المفردات المستعملة، ولو وضعنا لكل معنى طارئ مفردة خاصة يستقل بها لما اتسع أي معجم لذلك مهما كانت طاقة استيعابه، ولذلك كثر في اللغات البشرية الترادف والمشارك اللفظي وما يقوم مقامها، فضلا عن الأغراض التي يعبر عنها السياق بمجمله، أو الحال بأكمله؛ وكما لاحظ الجاحظ في البيان والتبيين، وعدد من علماء اللسان المعاصرين، أمثال هوكيت، فإن مدار التفكير وقوامه قائم على اللغة، فبدونها لا يمكن الحركة بحرية في المجالين الزمني والمكاني لكتابة التاريخ، وتسجيل الأحداث، وتوقع المستقبل. وفي الجهة المقابلة أيضا، نحتاج اللغة في الأدب وفي علم النفس والفلسفة لاقتحام أدق تفاصيل الذات الإنسانية، وبناء النظريات والتصورات المعقولة³.

وفي كل الأحوال، يمكن قياس خطورة هذا الموضوع من خلال افتراض نقيضه، وسيبتين بكل وضوح أن علمنا بغير اللغات التي نتحدثها، ونكتب ونقرأ بها، سيكون عالما مختلفا تماما، وقد أكد كبار مؤرخي العلوم كجورج سارطون مثلا في موسوعته، أن اكتشاف الكتابة كان العنوان الأبرز للحضارة الإنسانية خلال ألفي سنة قبل الميلاد وما بعدها، وصرح المؤرخ اللغوي جون لايبونس بأن مخترعي الكتابة، وهم التجار والبحارة الفينيقيون، كانوا أعظم العباقة على الإطلاق، وقدموا للإنسانية فضلا لا يدانيه أي فضل آخر من نوعه⁴.

ولقد ظهر علم اللهجات في وقت مبكر نسبيا، خلال ق 19 م، وكان في حينه فرعا من اللسانيات التاريخية، يهتم بمطلق التطور، ويركز على الملامح العامة. غير أنه عرف تحولات أساسية على مر العقود، وأصبح في الوقت الحالي تخصصا قائما برأسه، أو فرعا مندرجا بعلاقة التضامن في اللسانيات الاجتماعية، على أساس أن جوهر البحث اللهجي يركز على ملاحظة الجماعات اللغوية في اتصالها أو انفصالها عن المحيط الاجتماعي والثقافي الذي تنشأ فيه. ومن مسائله الأساسية دراسة الاختلافات اللغوية بالاعتماد على التوزيع الجغرافي، وتسجيل السمات والملامح الأدائية طبقا لنفس المعيار.

والسمات اللهجية تابعة في معظم الدراسات الأكاديمية إلى التقسيم النمطي للمستويات اللغوية، صعودا ونزولا؛ فباعتبار الصعود من الأصغر إلى الأكبر نجد سمات صوتية وصوتية (فونولوجية) ثم سمات

صرفية ونحوية، ثم سمات تركيبية ودلالية، وغالبا ما يضيف الباحثون مستوى خاصا للسمات المشتقة من استعمال اللغة، يسمونه التداولي أو التفاعلي، وهو تنويج للتصور السوسiolساني للغة.

كما تتضمن المفاهيم التي تتم دراستها بشكل شائع في علم اللهجات مشكلة الفهم المتبادل في تعريف اللغات واللهجات؛ ومواقف ازدواجية اللغة، حيث تُستخدم لهجتان لوظائف مختلفة؛ واستمرارية اللهجات التي تشمل عدداً من اللهجات ذات الفهم المتفاوت؛ والتعددية المركزية، حيث تحتوي لغة واحدة على نوعين قياسيين أو أكثر.

والتغيير الصوتي من أهم المفاهيم الإجرائية التي يعكف الدرس اللهجي على تحريرها، وهو مفهوم قديم بقي له ذات الأهمية على مر العقود، منذ الدراسات الأولى المبكرة التي قام بها النحاة الجدد في ألمانيا وغيرها من مناطق شمال أوروبا وغيرها.

والتغير الصوتي من الناحية التاريخية⁵، هو تغيير يحصل أولا وقبل كل شيء في نطق اللغة وتلفظها وغالبا ما يكون مظهرا صوتيا محايذا، وخاصة في بداياته، بحيث يمكن التفطن إليه بسرعة إذا كان المستمع خبيرا أو من أهل اللغة السليقيين.

ويمكن أن يتضمن التغيير الصوتي استبدال صوت منطوق واحد، بآخر مختلف عنه. وقد يكون تغييرا أكثر عمومية يحدث في أصوات الكلام الموجودة بالفعل في نظام اللغة الأدائي، وذلك مثل دمج صوتين أو إنشاء صوت جديد ونظائر ذلك.

ولقد لاحظ العلماء أن التغيير الصوتي يقود في حالات عديدة إلى إزالة الصوت الأضعف، وهو الصوت المتأثر أو التالي في الحدث الكلامي. كما يمكن أن يقود إلى عكس ذلك عند إضافة صوت جديد. وهذا الصوت الجديد يكون في أول ظهوره تنوعا حرا، أو حالة تمايز (features) كما يرى الوظيفيون. وذلك مثل التنوعات الحرة لحرثي الجيم والقاف في مختلف أنحاء الوطن العربي.

ومن المهم أن نعلم بأن التغييرات الصوتية غالبا ما تكون مشروطة بالبيئة اللغوية؛ وهذا ما يفسر المظهر الجزئي، بمعنى أن يحدث التغيير في بعض البيئات الصوتية فقط، وليس في كل البيئات. ومن المفاهيم الأساسية التي تدخل في متطلبات استيفاء هذا المفهوم، وتشغل جانبا واسعا من البحث اللغوي التطوري في زماننا، ما يعرف بتنافس السمات اللغوية/ اللهجية، ولقد تطرق وليام لابوف إلى هذه الظاهرة في دراسته حول التراتبية الاجتماعية التي يعكسها الأداء اللغوي لسكان مدينة نيويورك، وطبقت هذه النظرية

بشكل موسع في التحريات الميدانية التي أسفرت عن الأطلس اللغوي للولايات المتحدة وكندا وظهرت نسخته النهائية الأولى سنة 2005م.

2. أنواع الأوساط الاجتماعية لاكتساب اللغة العربية:

تكتسب اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية انطلاقا من مصدرين أساسيين؛ المصدر الطبيعي، والمصدر الصناعي.

أما المصدر الطبيعي فنقصد به الوسط الاجتماعي الأول الذي يولد الإنسان فيه، ويجد نفسه محاطا بتأثيراته المختلفة، ويضطر للتفاعل معه بشكل دائم. وهذا الوسط الطبيعي هو الأساس الذي لا غنى عنه لاكتساب أي لغة، ويشمل على جهة الخصوص: الأسرة وأفرادها القريبون، الذين يَحْتَوون الطفل على الكلام ويلعبونه باستمرار، وبخاصة العنصر الأنثوي، كالأُم والجدّة والأخوات الأكبر سنا، فقد أثبتت العديد من الدراسات أن الطفل ينسخ النموذج النطقي لمحيطة الأسري، فيكون صورة مشابهة له، ويميل هذا النموذج بصفة عامة ليكون أشبه من حيث سماته العامة بطريقة أمه في الأداء.

كما أظهرت دراسات حديثة قام فيها الباحثون بمراقبة الطفل ليلا ونهارا مدة ثلاث سنوات، أن الموجودات الحسية، والمعينات السياقية تلعب دورا كبيرا جدا في حث الطفل على سرعة النطق. ومن أهم هذه الموجودات الحسية تلك التي يتعامل معها الطفل في الحالات العادية كملابسه، ولوازم إ طعامه وإلعبه ومجمل المكونات الحسية الموجودة في محيط إدراكه.

وأما المصدر الصناعي، فهو مصدر طارئ ويمكن اعتباره ثانويا، لكنه فرض نفسه بقوة بسبب ارتباطه بالوسائل التكنولوجية التي اخترقت مجال التواصل اللغوي، وأصبحت تنافس المصادر الطبيعية في تأسيس لغة الطفل وصقل مهاراته الكلامية. فمن الواضح أن البيوت المعاصرة أصبحت عالية على التكنولوجيا، حيث يعرض الطفل منذ أيامه الأولى إلى وسائط رقمية مختلفة، تستغرق وقتا طويلا جدا من سنوات وعيه الأولى⁶.

هذه متغيرات أساسية طرأت في عالمنا، وغيّرت بصورة جذرية طريقة تفكيرنا ونمط حياتنا، وقد اكتشف كثير من الباحثين أن الوسائط التقنية الجديدة أصبحت جزء لا يمكن فصله عن الأسرة، ويترتب على ذلك أن نسبة مساهمته في اكتساب الطفل أكبر بكثير مما نتصور، وقد بينت العديد من الدراسات أن تعرض الطفل الصغير للبرامج التلفازية الناطقة بالفصحى التعليمية يؤثر بوضوح على نصوص الملكة

عموما ولا سيما الجانب المعجمي الذي يتضح أكثر فأكثر أنه أضعف الجوانب في ملف اكتساب الطفل اللغة العربية.

من جهة أخرى أظهرت الدراسات أن التعرض المكثف وغير المنتظم للبرامج الإعلامية بصفة عامة قد يكشف عن تأثيرات سلبية محتملة قد تصل إلى بؤادر التوحد⁷ كما يظهر عند متابعة الملف التربوي لمجموعة أطفال في منطقة واحدة اشتكى المعلمون من معاناتهم معهم فوجدنا أنهم يعانون مرحلة مبكرة من التوحد، وكان من جملة المؤشرات المشتركة بينهم عامل التعرض الطويل غير المراقب لشاشة التلفاز. ومن المعروف أن الأعراض الخارجية المباشرة للتوحد تشمل على الخصوص مشكلات عفوية الكلام وقلب الضمائر⁸.

3. طرائق اكتساب الأداءات الإقليمية:

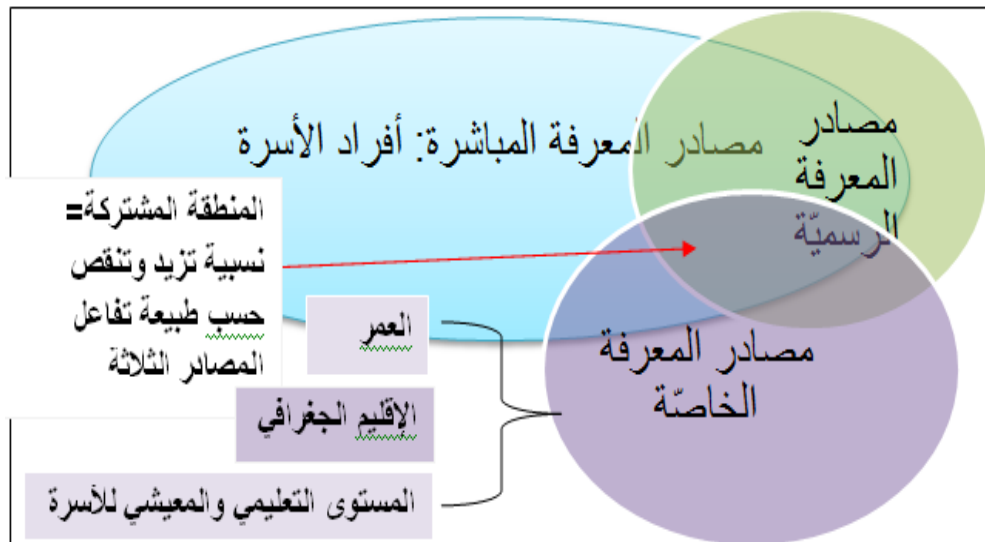
من المهم أن نسجل بأن اكتساب اللغة العربية في النطاق العام للأسرة العربية من المحيط إلى الخليج يخضع لزوما إلى نموذج مشترك يمثل "العربية العامية المشتركة" في مقابل "الفصحى المشتركة" التي يتلقاها الناطق العربي في المدرسة، ويجد أثرها في الإعلام المكتوب، والقنوات الرسمية. ورغم أن الدراسات العربية، وحتى الغربية، لا تتحدث كثيرا عن العامية العربية المشتركة فإنها موجودة بالقوة؛ لأن لكل وجه فصيح وجها عاميا يقابله، وهذا منذ قديم الزمان، حتى في زمن السليقة كان مجموع اللهجات القبلية المنتشرة والمعروفة في ربوع الجزيرة العربية يمثل في مجمله عامية مشتركة، وأوضح دليل على ذلك إدراك المتكلم أن هذا الوجه داخل في العربية، رغم أنه ليس من الفصح. وحتى أوصاف النحاة واللغويين المبثوثة في تصانيفهم، حينما يصفون العبارات بأنها أقل فصاحة أو أقل شهرة، فهو دليل على ارتسام النموذج اللغوي كاملا في عقولهم؛ بما فيه من الفصح والعامي.

فإذا افترضنا حالة (س) تمثل متكلما باللغة العربية، في نطاق جغرافي معين على الخريطة، وفي اللحظة الكلامية (م0) التي تشير إلى وقتنا الحالي. فإن كلام هذا المتكلم يتحدد بدلالة نقاط التقاطع الحاصلة فعليا على محوري: الدالة الزمانية، والدالة المكانية؛ المعروفين في الدراسات اللسانية الحديثة بمحوري التعاقب والاستبدال.

ومن حيث المضمون؛ فإن كلام المتكلم (س) الذي يجري على لسانه بصفة اعتيادية ويومية، يتكون أولا من محصول الوسط الأسري الطبيعي والنموذج الذي ينسخه عنه، ثم نجد فيه محصولا آخر ناتجا عن مصادر التعليم والتثقيف الرسمية وغير الرسمية، ثم نجد فيه مكونات وسمات من الواضح أنها نتيجة

خبراته الخاصة، ودرجة انخراطه في التفاعل المعرفي الجاري من حوله. ومن المهم الإشارة إلى أن بعض الدراسات المسحية التي أجريت مؤخرا، أظهرت بأن المستوى الاقتصادي يؤثر بدوره على ملكة المتكلم تأثيرا كبيرا.

وقد وضحت العديد من الدراسات التي أجريت في مناطق متباعدة من حيث الخصائص الجغرافية والمستوى المعيشي والفئات العمرية أن الحصول الاكتسابي الأول الذي يمتصه الطفل من البيت والإعلام ومدارس التعليم المبكر يؤثر بنسب جد عالية على الملمح النهائي للغة التي سيستعملها طوال حياته بصفة اختيارية لاشعورية⁹. وهذا دليل إضافي على الأهمية القصوى للمراحل المبكرة من التعليم من جهة، وعلى أهمية الاختيار الدقيق للمحتوى التعليمي الموجه لهذه الفئة سواء من ناحية الخصائص النطقية الأدائية أو التدريج الخاص بالوحدات الإفرادية وطرائق التحويل والتصريف داخل اللفظة وداخل العبارة المشتملة على التثنية أو الإطالة.



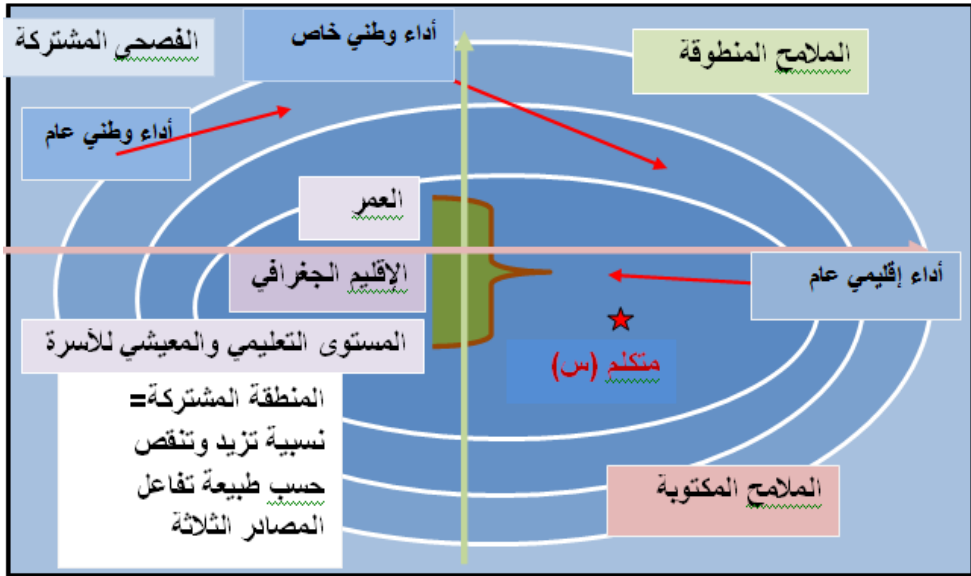
شكل 1: مصادر المعرفة التي تشكل لغة الطفل العربي خلال السنين الخمس الأولى من عمره

ولقد كشفت العديد من الدراسات الحديثة، أن كل المحاولات النطقية التي يبادر إليها الطفل، لا تكون البتة من تلقاء نفسه، بل المحفز الخارجي هو الأهم في تحرير هذه الطاقة التلفظية، ويستمر الطفل على اعتماده التحفيز الخارجي إلى مطلع السنة الأولى، أو قبلها بقليل، ثم تنطلق قدرته النطقية بتدفق

واضح على شكل نغوات ولفظات متقطعة، تشبه في مظهرها الصوتي العام الكلام العادي، لكنها خالية من ميزة التقطيع، لذلك لا يعدها معظم الفونولوجيين كلاما، وهذه مسألة خلافية.

كما لاحظ الباحثون أمرا مهما، وهو الجهد العقلي والمعني الهائل الذي يسلطه الطفل على الكلام، وبخاصة في مرحلة بداية الإنتاج، مع مطلع السنة الثانية من عمره، إذ يحتوي هذا الجهد على عمليات تحليلية عميقة تتضمن: التصفية والنقل والاختزال، وعمليات منطقية تتضمن: التعميم بأشكاله، بما في ذلك التعميم السليبي، وفرط التعميم، وطرده الباب كما يقول سيوييه.

ويرى فريق من الباحثين العرفانيين، ومن قبلهم جون بياجيه ومدرسته المعرفية، أن للطفل في هذه المرحلة بالذات سلوكا انتقائيا يستقبل بموجبه التدفقات الكلامية الصادرة إليه، وكونه يفرق أولا بين الصوت البشري والصوت غير البشري (كأصوات الحيوانات، وأصوات الأدوات مثلا)، ثم تميزه لصوت المقربين منه، ولا سيما الأم، دليل على بداية نضج وعيه الصوتي منذ فترة جد مبكرة. لدرجة أن بعض الدراسات التي أجريت على النساء الحوامل، تفترض بأن هذا الوعي الصوتي ينشأ في الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحمل، فقد وجدت إشارات مقنعة، عن طريق التصوير الطبقي رباعي الأبعاد للأجنة وهم يتحركون ويتفاعلون في بطون أمهاتهم، أن لديهم استجابات دلالية واضحة لثنائية الصوائت والصوامت، وهذه الثنائية هي الفارق الصوتي الجوهرية الذي يميز الكلام البشري عن غيره.



شكل 2: المواقع الاحتمالية للمتکلم العربي ضمن نطاقات الأداء اللغوي المختلفة

4. مشاريع المسح الجغرافي للغات واللهجات والتنوعات الكلامية:

1.4. مشاريع العمل على أطلس اللغة الألمانية: .

كان الهدف التقليدي للمسح اللغوي هو ربط الجغرافيا بجمهور المتكلمين، وهذا هو الهدف الاستراتيجي لكل مشاريع الأطالس اللغوية، وكانت ألمانيا هي السبابة في العمل وبخاصة في مرحلة الإمبراطورية البروسية. وقد أنجزت في تلك الحقبة أعمال كثيرة، منها المجموعة التي تضم 1668 خريطة جزئية مرسومة يدوياً، وكانت تمثل بالنسبة لزمان إنجازها النسخة الكاملة الأولى من "أطلس لغات الإمبراطورية الألمانية" لجورج فينكر. بالإضافة إلى ما يقارب 50,000 نموذج مسح مرفق. تُعد هذه المادة، الفريدة من نوعها في العالم، توثيقاً شاملاً للهجات الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ومن المجموعات التاريخية الفريدة الأخرى "أطلس لغات مقاطعة الراين ومقاطعة سيغن الذي رسمه جورج فينكر يدوياً. ويُعتبر هذا الأطلس، الذي يعود تاريخه إلى عام 1878، بمثابة بداية رسم الخرائط اللغوية العلمية.

كما تتوفر أيضاً ما يقارب 50.000 وثيقة تاريخية أخرى خاصة باللهجات، مثل نماذج المسح متعددة الصفحات لـ"أطلس الكلمات الألمانية.(Deutscher Wortatlas) " بالإضافة إلى خرائط اللغات التاريخية وأطالس اللغات ومواد المسح، تتضمن المجموعة العديد من أطالس اللغات الحديثة للغة الألمانية.

خطة العمل المطبقة في الأطلس الألماني:

يرجع الفضل في كل المشاريع العلمية الخاصة بأطلس اللغة الألمانية، إلى العالم اللغوي والمؤرخ كيورك فينكر، ومازالت المشاريع الأطلسية في اللغة الألمانية مستمرة ومتطورة إلى يومنا، وتعتبر من أقوى التجارب وأحسنها حول العالم، ولكنها تقرر في كل حالها؛ سواء في دراسة اللغة الفصحى أو اللهجات المحلية والإقليمية، داخل ألمانيا وخارجها، بالعمل الأساسي الذي قام به الرواد الأولون.

وكانت فكرة ربط الجغرافيا بالمجتمع الناطق فكرة متجذرة في عقل فينكر، فقد حاول منذ سنة 1876م أن يرسم أول خريطة جيوسانية لهجة المنطوقة في محل إقامته، شرق ألمانيا، وتضمنت هذه الخريطة العامة كمشروع ابتدائي، مسحا هو الأول من نوعه في تاريخ هذا النوع من الدراسات شمل معلمي الألمانية في شمال وشرق ألمانيا.

وكانت منهجية العمل بسيطة ومباشرة، فقد أرسل فينكر قائمة بجمل مكتوبة بالألمانية الفصحى (اللغة المعيار)، وطلب إليهم ترجمتها إلى اللهجة المحلية، وبالأخرى إعادة صياغتها، لكنه استخدم في رسالة الاستبانة اللغوية مصطلح الترجمة، بمعنى التأويل أو إعادة الكتابة.

واستمر هذا العمل نحو عشرة أعوام متواصلة، ابتداء من العام 1877 وصولاً إلى عام 1887. وخلال هذه الفترة، التي تعد طويلة نسبياً، وبخاصة إذا أخذنا في الحسبان الشروط الحالية، تمكن فينكر في مسح البلاد بأكملها، التي كانت تشمل الإمبراطورية البروسية، ضمن حدود أوسع من حدود دولة ألمانيا الاتحادية الحالية.

وبالنظر في التقرير المفصل الذي حرره فينكر حول هذا المشروع، نجد بأنه أرسل 50.000 بطاقة مسح، فأجاب عليها إجابة ملائمة 45.000 من المعلمين. وتعد هذه النسبة ممتازة، وربما مثالية، إذ وصلت نسبة النماذج المعتبرة إلى 90% من مجموع النماذج الكلية.

وكان كل استبيان مكونا من أربعين عبارة قياسية، تختلف من حيث الطول والتركيب، وكانت تركز بشكل واضح على الاختلافات الفردية في مستوى استخدام المعجم، وعرفت هذه العبارات في الدرس الأطلسي بجمل فينكر (wenker sentences).

كما راعى فينكر في عباراته ميزة أخرى، اعتقد من وجهة نظره أنها ميزة تفرق بين الفصح والعامي، وهي ميزة التعقيد في التركيب، التي سماها بدرجة السهولة والصعوبة، وحاول أن يضفي الملمح الجغرافي والمناطقي على الجمل، لذلك نجد عددا منها يتضمن العمل والحركة في ظل الطقس البارد حيث الثلوج والأمطار؛ فالجمل الأولى تقول: "في الشتاء تتطاير الأوراق الجافة في الهواء"، وبعدها جملة أخرى تقول: "الرجل العجوز مع حصانه الكبير تتناقل أرجلهما داخل الثلج الكثيف". وتستمر بقية الجمل على هذا المنوال. وباستثناء هذه الضوابط العامة، لم يوضح فينكر الشروط الأخرى التي اشترطها في اختيار الجمل، ولم يبين أيضا الطريقة التي تم بواسطتها استخراجها أو انتقاؤها، وفي العمل الأطلسي المعاصر لا يمكن اعتماد هذا المنهج العام، بل يجري إعداد مسح أولي قبل إعداد كراسة الاستبانة اللغوية.

ولقد أجريت الكثير من الدراسات التي راجعت مشروع فينكر بأدق تفاصيله، في ألمانيا وغيرها من مناطق العالم، وأجمعت هذه الدراسات على تهمين هذا الجهد، واعتباره استثنائيا بالنظر إلى زمانه، وبالنظر إلى أنه جهد فردي إلى حد بعيد.

غير أن المقارنة النقدية أثبتت على سبيل المثال أن الحجم الهائل لمجموعة العينات التي عرضها فينكر، يعد عيبا أساسيا في المشروع، ويتبين باعتماد الطرائق الإحصائية الحديثة، كما في حالة العينة الطبقية مثلا، أن المشروع لا يحتاج إلى هذا العدد الضخم من العينات، بقدر ما يحتاج إلى عينات متخيرة بعناية، بحيث تمثل المجتمع الكلامي المقصود أحسن تمثيل، والدليل الواضح على ذلك أن عدد العينات في أطلس شمال أمريكا لم يتجاوز 2000 عينة. وهو مع ذلك عمل سليم تماما من الناحية المنهجية.

وبسبب تركيزه على البعد الكمي، اقتصر مشروع فينكر على تحليل فوقي شمل الاختلافات الواضحة للعيان على مستوى المعجم، ويبدو أنه لم يتمكن من مقارنة جميع الاستبانات التي وصلت إليه، لذلك اقتصر عمله على نطاق جغرافي محدد، هو بكل تأكيد، أضيق كثيرا من النطاق الأصلي للمشروع. والجدير بالذكر أن فينكر بادر إلى وضع خرائط أولية لشمال ووسط ألمانيا قبل أن يكمل جمع الاستبانات، ثم واصل جمع الاستبانات بعد نشر أطلسه. غير أن هذا الأمر استغرق أكثر من أربعين عامًا لتحقيق الرؤية التي كان يصبو إلى تحقيقها.

في عام 1926م وتحت إشراف فرديناند فريدي، نُشر المجلد الأول من "أطلس اللغة الألمانية". ولعله من المحتمل جدا أن يجد علماء اللهجات في الفترات اللاحقة، وفي أيامنا هذه أن بيانات فينكر، التي كانت بالفعل غنية بالمعلومات الصوتية، وتحليل بنية الكلمات. إلا أنها محدودة للغاية من حيث المتغيرات المعجمية والنحوية.

ولأسباب سياسية واقتصادية، توقف العمل في مشروع أطلس اللغة الألمانية سنة 1956م، ومع ذلك فإن الحصيللة التي نتجت عنه تعد في ذاتها ذخيرة لا تقدر بثمن بالنسبة للغة الألمانية؛ تاريخيا وثقافيا؛ وذلك من خلال أكثر من 16.000 خريطة مرسومة يدوياً، وهي محفوظة في حالة جيدة في الأرشيف الرسمي لولاية ماربورغ، وتم مؤخرا طبعها رقمياً، وحولت إلى أطلس خرائطي رقمي بموقع خاص.

2.2. شمال أمريكا: الولايات المتحدة وكندا.

تأسس مشروع الأطلس اللساني للولايات المتحدة سنة 1929م، وعرف اختصاراً بـ (LAP) وكان هذا المشروع في الأصل، بناءً على طلب الجمعية الأمريكية لدراسة اللهجات، واستغرق العمل عليه فترة طويلة، كما مر بمراحل مختلفة؛ فقد كان في البداية تحت الإشراف العلمي لعالم اللسان الألماني هانز كورات، ثم تولى رئاسته من بعده الروسي الأصل وليام لا بوف.

ولا يزال هذا المشروع في مجاله الدراسة الأوسع من حيث الرقعة الجغرافية، والأكثر شمولاً للغة الإنجليزية الأمريكية حتى الآن. ويتألف هذا المشروع من مشاريع فرعية عديدة، مقسمة حسب المنطقة الجغرافية. يمثل كل مشروع منها مجموعة بيانات لغوية، تحتوي على قاعدة بيانات خاصة، وملفات تسجيل (مفردات، قواعد، ونطق) وأغلب هذه المادة قد صُنفت على شكل مقابلات لهجات، ومقابلات وجهاً لوجه طُرِح فيها على المشاركين سلسلة من الأسئلة المحددة مثل: "ما اسم قطعة الأثاث التي تحتوي على أدراج لحفظ ملابسك؟" (كانت إجابات شائعة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين: "مكتب"، "خزانة ملابس"، و"خزانة أدراج").

كما تغطي الأسئلة المحددة، التي يزيد عددها عن ٨٠٠ سؤال، مجموعة واسعة من المواضيع، من المنزل والمزرعة، إلى الطقس والنباتات والحيوانات، إلى الطعام والطبخ، والعلاقات المجتمعية. وقد دَوّن الباحثون الميدانيون الإجابات باستخدام الأبجدية الصوتية الدولية (IPA)، وذلك لتسهيل حفظها في ملفات رقمية، ولتسهيل تحليلها اللغوي فيما بعد.

وكما سبقت الإشارة، فإن هانز كورات اللغوي الأمريكي من أصل نمساوي، كان أول مدير للمشروع، وأشرف على عمليات المسح الأولى، وكانت مسوحات ميدانية إقليمية. ومع مرور الوقت، توسع طلاب كورات وغيرهم من الباحثين، وبدأوا مشاريع إقليمية في جامعات أخرى في جميع أنحاء الولايات المتحدة. وحتى الآن أجريت أكثر من 5000 مقابلة.

كان الهدف من الأطلس اللساني هو رسم صورة شاملة للغة الإنجليزية الأمريكية، تُبرز التنوع وتُشير إلى الروابط بين اللغة ومختلف العوامل الاجتماعية والثقافية والتاريخية. وقد اتضح من خلال هذا المشروع أن كمية البيانات اللغوية التي يحتويها الأطلس لا مثيل لها في علم اللغة الاجتماعي الأمريكي؛ ويُجسّد هذا المشروع في الواقع مفهوم "البيانات الضخمة" في العلوم الاجتماعية.



خريطة 1: نموذج من خرائط أطلس أمريكا 2005.

5. التحريات اللغوية في الوطن العربي:

تتنمي اللغة العربية سلاليا إلى الأرومة العروبية، وهي عند اللسانين الغربيين لغة سامية، وهذا التصنيف عليه مآخذات كثيرة، وقد أثبت العديد من فقهاء العربية انطواءه على تحييدات عرقية وعنصرية، وليس مفهوما علميا موضوعيا كما يدعي إسرائيل ولفنستون على سبيل المثال، ووافقه المهتمون بعلم العربية

من المعاصرين الغربيين بالإجماع، ولم يكلف أحد منهم نفسه الحفر والتنقيب حول هذا المفهوم، أو مجرد إثارة الشك المنهجي حوله كما هو دأبهم مع كل شاردة وواردة من مفاهيم النحو العربي.

وتدخل العربية في التصنيف الفرعي ضمن عائلة اللغات المشتركة الأفروآسيوية، وهي مجموعة نشأت في النطاق الجغرافي المعروف تاريخيا بشبه الجزيرة العربية (Arabian Peninsula). ومن الأمور الواضحة في الرصد الراهن للمحادثات العربية العفوية وجود اختلافات متفاوتة في النطق، فثمة اختلاف خفيف لا يؤثر على البنية الصوتية ولا يحدث فرقا مؤثرا في المعنى، وهذا النوع من الاختلافات يمثل النسبة الأكبر. وثمة اختلافات كبيرة تدخل في عمق البنية الصرفية فتغيرها، كما تغير المعنى تغييرا كبيرا.

ويأتي العامل الجغرافي في أول وأقوى العوامل التي يتميز بها هذا التغيير، فمن حيث المبدأ تختلف الأداءات المشرقية عن الأداءات في المغرب العربي وأفريقيا، كما تختلف الأداءات في المشرق بين الخليج العربي وبلدان الهلال الخصيب، وتقع مصر أولا والسودان بدرجة أقل في النطاق المركزي الذي يتوسط الإقليمين.

أما العامل الثاني الذي لا يقل أهمية عن الأول فهو الرحلات والمهجرات التي قامت بها الجموع والقبائل القاطنة في الشرق وأقصى الجنوب في حركتها الطبيعية المندفعة نحو الشمال والشمال الغربي، وكان هناك أماط راتبة من هذه التنقلات، في طلبعتها الحركات التي نتجت عن الطرق التجارية العالمية التي كانت تمر بشبه الجزيرة العربية وتمضي قدما نحو الشام فأوروبا من ناحية، أو تمضي نحو جنوب البحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى.

وقد أظهرت بحوث وتحقيقات حديثة أن الاتجاه الثاني كان ضاربا في القدم، لدرجة أن قبائل يمانية واصلت تشق طريقها في عباب بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) حتى وصلت إلى القارة الأمريكية قبل أن يصلها كولومبوس بقرون عديدة.

أما التأثير الفينيقي في عموم منطقة البحر الأبيض المتوسط فالأدلة عليه أوفر من أن تدحض، والفينيقيون هم من العرب، كما ركن إلى ذلك جمهور المؤرخين، ومنهم المؤرخ اللغوي الفرنسي نيكولاس أوستلر مثلا في دراسته الحديثة بعنوان: "إمبراطوريات اللغة".

والفينيقيون هم الذين عرفوا بالنشاط التجاري والفكري، وتنسب إليهم جملة من الاختراعات البديعة التي غيرت مجرى الإنسانية، ومن أبرزها اكتشاف الرموز المجردة التي تنوب مناب الأصوات، وهي أساس كل الأبجديات الحديثة؛ فقد كان عهد الناس في العصور الغابرة أن يربطوا الصوت بصورة تناسبه،

وكانت الصور وقتئذ كثيرة جدا بكثرة الأشياء والموجودات في الحياة، إلى أن اكتشف الفينيقيون أنه يمكن ربط الصوت اللغوي برمز مجرد لا علاقة بينه وبين الصوت في الواقع، ولا شك أن هذا الاختراع ما كان ليقوم إلا وقد سبقه تحليل شامل لمدارج الكلام، وقد اعتبر المؤرخ اللغوي جون لا يونس أن مخترعي الأبجدية هم أعظم اللغويين على الإطلاق، وفضلهم على الإنسانية لا يضاهيه فضل من نوعه.

ويمكن العثور على العديد من جوانب التنوع اللغوي التي تشهد عليها هذه المتغيرات الحديثة وأصلها ثابت في اللهجات العربية القديمة، بل إن فقهاء اللغة طوروا العديد من النماذج التي تحاكي الخصائص اللهجية للقبائل العربية بدلالة انتشارها، وهذا ما تدل عليه الأطالس اللغوية القديمة. وتكمن أهمية هذه الأطالس في حقيقة مهمة جدا، وهي أن كثيرا من مظاهرها الموصوفة في كتب اللغويين والنحاة، مازالت ماثلة ومنطوقة بالفعل في مناطق متفرقة من الوطن العربي، وهذا بخلاف اللغات الأوروبية الحديثة، التي انفصل معظمها عن اللاتينية فضلا عن اليونانية انفصالا كبيرا.

وعلى نحو مماثل، يمكن أن تُعزى العديد من السمات التي تميز المتغيرات النطقية الحديثة المختلفة إلى لهجات ولغات طرأت على البلدان العربية لأسباب مختلفة، منها الغزوات والحروب والرحلات التجارية. إن بعض المنظمات اتخذت طريقا غير مبرر علميا صنفت بموجبه 30 لهجة في عموم الوطن العربي، ثم اعتبرتها لغات مستقلة، وهذا دأب المنظمة الأنجليكانية المسماة بالمعهد الصيفي الدولي للغات¹⁰ SIL Global،¹¹ كما ورد في العديد من أبحاث موقعها الرسمي على الشبكة (Ethnologue: Languages of the World)¹². بينما تعتبرها منظمات أخرى، مثل مكتبة الكونجرس على سبيل المثال، كلها لهجات أو تنوعات أدائية إقليمية متفرعة من اللغة العربية الفصحى.

6. نتائج البحث:

يلاحظ من تتبع التجارب الأطلسية حول العالم أن معامل التغير الصوتي والفونولوجي هو الركيزة في كل الدراسات الرامية إلى مسح شامل للتحويلات النطقية المسجلة في نطاق جغرافي محدد. وسبب ذلك أن البعد الصوتي هو المظهر الأكثر جلاء وحسية من جملة مظاهر الكلام، كما أنه بُعْد قابل للمعانة والقياس، وتنبني عليه جل ما فوقه من المستويات الأخرى.

يلاحظ من جهة أخرى أن المناهج التطبيقية كانت تواكب التطور المعرفي والتقني ونمط الحياة بشكل مستمر، فقد اعتمد الأطلس الألماني على التسجيل الخطي، واعتمد الأطلس الأمريكي على المكالمات الهاتفية، وفي الوقت الحالي تتجه جل المشاريع ذات الصلة إلى استغلال المميزات الإضافية التي

تمنحها الشبكة؛ فقد اعتمد مشروع حديث مشترك بين الولايات المتحدة وبريطانيا صدرت نتائجه سنة 2013م على إطلاق حملة للإجابة على الاستبيان بواسطة مواقع التواصل الاجتماعي وموقع اليوتيوب. ويتطلب إعداد الأطلس اللساني العام مرحلة تحضيرية طويلة ومفصلة، تتخللها دراسة مستفيضة للمعطيات الجغرافية والديمغرافية واللسانية.

كما ينبغي أن ترتب الملامح اللسانية بحسب أولويتها من الأصل إلى الفرع، فلقد نبهت جل المشاريع الأطلسية على الأهمية القصوى للتغير الصوتي بقسميه؛ الدال وغير الدال. وبعبارة أخرى فإن الفونيمات الحرة قد يكون تغايرها النطقي لهجيا وقد لا يكون كذلك، فمن الضروري التفتن إلى هذه المسألة لأنها ما زالت غير مكتملة في الدراسات العربية.

وبالجمع بين الاقتراحات المطبقة في الأطالس العامة المنجزة نلاحظ بأن أغلبها اعتمدت متغيرين اثنين أو ثلاثة على الأكثر، وأهم هذه المتغيرات: السن والجنس والمستوى الثقافي. وهناك متغيرات أخرى عديدة حاول البعض تطبيقها، إلا أنها لا تخلو من جدل سواء في كيفية التحليل، أو في التنسيق بينها وبين بقية المتغيرات. يقال ذلك بخصوص متغيرات مثل: الطبقة الاجتماعية، مناطق النفوذ، المدن الصناعية.

7. المصادر والمراجع:

1. إبراهيم السامرائي، من سعة العربية، دار الجيل، بيروت، ط1، 1994م.
2. أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة و النشر، الدار البيضاء، ط1، 1985م.
3. التوحيدي، أبو حيان (1939)، الإمتاع والمؤانسة، ط القاهرة.
4. شحلان، أحمد (2009)، مجمع البحرين: من الفينيقية إلى العربية، دراسة مقارنة في المعجم واللغات الغروبية (السامية). دار أبي رقراق، الرباط، المغرب.
5. كون، توماس (1992)، بنية الثورات العلمية. تر: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والعلوم و الآداب، الكويت.
6. الحاج صالح، عبد الرحمن (2007)، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية (جزآن)، موفم للنشر، الجزائر.

7. -،، بحوث و دراسات في علوم اللسان

8. -،، السماع اللغوي العلمي العربي و مفهوم الفصاحة.

9. المسدي، عبد السلام (1986)، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس.
10. الموسوعة الفلسفية المختصرة، تر: فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد صادق، دار القلم- بيروت. ط1، 2007م.
11. Alaa Elgibali, Understanding Arabic: Essays in Contemporary Arabic Linguistics in Honor of Elsaid Badawwi, The American university in Cairo Press, Cairo, 1996.
12. Areyh Levin, Arabic Linguistics Thought and Dialectology, Academon press, Jerusalem, 1998.
13. C. H. M. Versteegh. Greek elements in Arabic linguistic thinking. Breill, eiden, 1977.
14. Chadly Fitouri, La Langue Arabes Dans Les Relations Internationales, Revue de L'occident Musulman et de La Méditerranée, N°20, 1975 .
15. Muhammed ben Abdeldjalil Bellakziz. Méthode étymologique pour l'étude du vocabulaire. Edition al-nadjah. Rabat. 1er Edi. 1991.

- ¹ - ستيفن بينكر (Steven pinker) الغريزة اللغوية. تر: حمزة بن قبالان المزيني. دار المريخ، الرياض، المملكة السعودية، 2000م ص21. (بتصرف يسير).
- ² - جورج يول. معرفة اللغة. تر: محمود فراج عبد الحافظ. دار الوفاء-الإسكندرية- مصر، 1999م. ص33-34.
- ³ - بحث العلماء طويلا في خصائص اللغة عموما، والخصائص المميزة والحصريّة للغة البشرية؛ وقد اقترح العالم الأمريكي: هوكيت (Hockitt) ثلاث عشرة خاصية مميزة. أنظر: محمد عماد الدين إسماعيل: الطفل من الحمل إلى الرشد. دار القلم-الكويت، 1995م ص230-232.

4- تدخل هذه الأفكار في إطار أوسع يسمى: نظرية النسبية (أو: الحتمية) اللغوية، التي تؤكد على الصفة الإدغامية التي تفرضها اللغة البشرية بالنسبة إلى فكر المتكلم، و يترتب على ذلك دورها الحاسم في بناء المفاهيم، و تكوين صورة خاصة للعالم تختلف من لغة إلى أخرى. يعد ألكسندر فلهلم فون هوبولدت - العالم و المفكر الألماني- من أوائل العلماء الأوروبيين الذين خالفوا الاتجاه السائد القائل بأن الاختلاف بين اللغات حصري في الألفاظ، أما المعاني فواحدة، و صرح بأن اللغة تساهم مباشرة في تشكيل صورة العالم في أذهاننا، لأن الفكر قبل اللغة هو سديم أو حالة مبهمة، ولا يتبين شيء على ما هو عليه قبل اللغة. يقول جوست تريبي (Jost Trier): «اللغة نظام يسلط على الواقع الموضوعي فيختار ما يلائمه.. و كل لغة تبني الواقع بكيفية تختص بها دون غيرها، ومن ثم تثبت عناصرها على مقاييسها»، و يقول لويس يلمسليف (L. Hjelmslev): «إن الشيء الواحد من الأشياء المحسوسة قد يكون له أوصاف معنوية جد مختلفة و ذلك لاختلاف الحضارات»، و يقول: إمبل بنفينيست (E. Benfenist): «إننا ننظر إلى عالم قد سبق للغة أن عاجلته».

يبني على هذا التصور مبدآن رئيسان؛ الأول: ترتبط المفاهيم في كل لغة ببنية اللغة ونظامها. الثاني: لكل لغة نظرة خاصة للعالم، قد تتطابق وقد تختلف عن نظرات اللغات الأخرى. أنظر: عبد الرحمن الحاج صالح، البحث اللغوي و أصالة الفكر العربي، ضمن سلسلة: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزائر، ط2007، ج1، ص122-145. و الباحث نفسه: recherche linguistique et interferences de substrats، بحوث ودراسات في علوم اللسان، الجزائر، ط2007، ج1، ص35-54.

5- يعكف على دراسة هذه الظواهر فرع علمي قائم بخياله هو: اللسانيات التاريخية أو علم اللغة التاريخي (Historical Linguistics). وقد ألفت فيه مصنفات كثيرة جدا على مدار قرنين متواصلين من البحوث المتخصصة، وتشعبت مباحثه، وتكاثر مناهجه. راجع مثلا المقدمة الإضافية للأستاذ كامبل في كتابه الآتي: Campbell, Lyle (1998). *Historical Linguistics: An Introduction*. Edinburgh: Edinburgh University Press. p. 391

6 - محمد حسن العامري. أثر الإعلان التلفزيوني على الطفل العربي. ص117-118.

⁷ - عبد الله حسين الرغبي. التوحد: تنمية مهارات التواصل لدى الأطفال التوحديين. عمان. 2014م، ص47-56.

⁸ - محمد كمال عمر. مشكلات الكلام التلقائي ومهارات اللغة والمحادثة لدى أطفال الأوتيزم. ص23 وما بعدها.

⁹ - Paul Bloom, How children learn the meanings of words, p7 -
¹⁰ - المعهد الصيفي العالمي للسانيات SIL Global، وكانت في التسمية السابقة تحمل سمة الدولية (international) وهي منظمة مسيحية إنجيلية غير ربحية هدفها الرئيسي هو دراسة وتطوير وتوثيق اللغات حول العالم، وخاصة تلك اللغات الأقل شهرة والأصعب انتشارا والمهددة بالانقراض، والهدف المعلن هو توسيع المعرفة اللغوية، وتعزيز محو الأمية، وترجمة الكتاب المقدس المسيحي إلى اللغات المحلية، والمساعدة في تطوير لغات الأقليات. فهي جزء لا يتجزأ من حركة التبشير المسيحي التي ترعاها كبريات المؤسسات الرسمية حول العالم.

استنادًا إلى عملها في توثيق اللغة، تنشر SIL قاعدة بيانات، Ethnologue، لأبحاثها في لغات العالم، وتطور وتنشر برامج لتوثيق اللغات وتسجيلها، مثل FieldWorks Language Explorer (FLEX) و Lexique Pro. تقع مكاتبها الرئيسية في الولايات المتحدة في المركز الدولي للسانيات في دالاس، تكساس.

¹¹ - هذا هو الاسم الجديد لهذه المنظمة، ومن الواضح أنه اسم قائم على التضليل وعدم المصادقية، ويخفي الخلفية الدينية والمرجعية التصنيفية المتعصبة لهذه المنظمة. وكان اسمها السابق: Summer Institute of Linguistics International

¹² - اسم الموقع: إثنولوجيا: لغات العالم. وكلمة إثنولوجيا هي نسبة إلى الإثنية وهي الواحد من الأعراق أو الأجناس البشرية. انظر الموقع على الشابكة: <https://www.ethnologue.com>